في كلتا المملكتين المتخاصمتين وينقلون البضائع بينهما وذلك الى سنة 273 م — الوقت الذي راى فيه الروم ان الفرصة قد سنحت للاستيلاء على تدمر كما كانت قد استولت على الرقيم من قبل .

يتجلى لنا في جغرافية بطليموس (حوالي 150 — 160 م) مدى التقدم الذي كان قد احرزه التجار الروم في الاستيلاء على التجارة الشرقية وذلك طبعا على حساب نفوذ العرب ومصالحهم فقد كانوا عرفوا خليج البنغالة بما فيه مصب نهر الكنك (Ganges) و « بلاد الذهب » (جنوبي ملايو) كما ان واحدا منهم على الاقل يسمى الاسكندر كان قد زار طونكنج (Tong King) ، كذلك وصل وفد منهم في سنة 166 م الى عاصمة الصين ليشكو من احتكار الايرانيين لتجارة الحرير ويعرض انشاء علاقات مباشرة عن طريق الهند (49) ومن جهة اخرى تفيدنا المصادر الهندية التاملية (Tamil) عن وجود جاليات للروم في جنوب الهند وانخراطهم في خدمة الامراء الهنود (50) كما ان ظهور التجار الهنود في اسواق الاسكندرية — الامر الذي يشهد به Dio Chrysostom على عهد طراجن(51) يعد دليلا على نمو العلاقات التجارية المباشرة بين الروم والهند .

وهكذا استمرت هذه الحركة قوية طوال القرنين الثاني والثالث بينما اصبحت العرب غير ذات شأن الى ان حدثت تطورات سياسية جديدة وساءت احوال روما الاقتصادية وانخفضت قيمة عملتها التي كان يتعامل بها كل من العرب والهنود فكانت النتيجة ان ركدت التجارة وتضاءلت الى ادنى حد بدليل انه لم يعثر في الهند على العملة الرومانية الراجعة الى ما بعد 211 م الا القليل النادر (52) .

*/

لقد راينا آنفا كيف ان العرب غلبت على تجارة الهند ولكن القضاء لم يمهل الروم طويلا ليجنوا من ثمرات نصرهم فسنرى كيف ان الفرس حلوا محل العرب والروم جميعا اثناء القرون التالية ، نعم وقد اشتد ايضا في الوقت نفسه مركز الاحباش حتى اصبحوا المنازع الوحيد للفرس في تجارة الهند :

انتقل زمام الحكم من البارتيين الى الساسانيين في سنة 225 م ومن اهم ما امتاز به الساسانيون اهتمامهم بتشجيع الملاحة عند الفرس — الناحية التي لم يلتفت اليها اسلافهم قط ، يتجلى هذا الاهتمام فيما قام به اول ملوك الاسرة الجديدة ، اردشير الأول (225 — 241 م) من انشاء الموانى وما اليها . وفي مطلع القرن الرابع نسمع عن حملة العرب سكان الساحل الغربي على الفرس بالساحل الآخر عبر الخليج الفارسي ثم عن انتقام سابور الثاني من العرب بعد ذلك بزمن قليل مما يدل على تقدم الملاحة واجتياز العنصرين دورا من المزج والصهر في بوتقة واحدة. وفي هذه الاثناء زالت روما وخلفتها قسطنطينية سنة 330 م كما ان حمير استكملت سيادتها على الجزء الجنوبي من جزيرة العرب حتى اصبح التبع « ملك سبأ وحضر موت ويمنات ونهامة » لكن حمير كانت الآن مهددة تماما من قبل الحبشيين الذين كان يجري في عروقهم دم المهاجرين من اليمن نفسها وفعلا بدأ ملوك كسوم (Axum) يتحرشون بسكان الساحل الشرقي للبحر الاحمر منذ اواخر القرن الثالث حتى نجحوا في النصف الاول من القرن الرابع في اخضاع حمير لسيادتهم ، ومع ان سيادتهم لم تدم الا برهة قصيرة استأنفت حمير بعدها استقلالها الا ان الحبشيين بقوا عاملا يعتد به في كل ما يتعلق بالتجارة والسياسة في البحر الاحمر .

لقد مررنا سريعا بالقرن الثالث والرابع والخامس لقلة المصادر عنها غير ان الوقائع التي سردناها تعطينا فكرة عن التيارات الآخذة في النمو والاشتداد وما ان نصل الى القرن السادس حتى نرى نتائجها واضحة مستكملة وهي تتلخص في استيلاء الحبشيين مرة اخرى على حمير سنة 525 م ، ومما يسترعي الانتباه ان ذانواس لم يكن يملك اسطولا ولم يظهر اية مقاومة الا بعد وصول المهاجمين الى البر ، ثم جاءت النهاية الكبرى للخراب الذي كان يتسرب

---

49) انظر Hirth: China & the Roman Orien, 1885 ص 173 — 178 .
50) Rawlinson ص 121
51) المصدر نفسه ص 140
52) المصدر نفسه ص 151

الى اليمن منذ قرون بشكل انشقاق سد مأرب ما بين 542 — 570 (53) أما الفرس فكانت مكانتهم عالية ممتازة جدا ، كانوا قد اكتسحوا الروم من الموانىء الهندية وكانوا كما يشهد به (Procopious) و (Cosmos) يتسلمون الحرير الوارد عن طريق البحر من « الصين » (Sinae) الساحلية فى سيلان بينما كانوا هم انفسهم مسيطرين على الخطوط البرية الموصلة عبر وسط آسيا الى (Seres) مصدر « السرق » 54) اي الصين الشمالية . فخلاصة القول انه لم يكن احد ينفذ من الحصار المضروب من قبل الفرس على الموانىء الهندية الا الحبشيون الذين كثيرا ما ترددوا ببضائعهم ، ولا سيما العاج ، على سيلان والساحل الغربي للهند حتى على موانىء الفرس انفسهم وكانت (Adulis) (حاليا Massawa) ميناء الحبشة الرئيسي (وقاعدة الهجوم على اليمن) ، فى هذا الوقت مركزا تجاريا هاما لأن الروم كانوا قد اضطروا الى قصر نشاطهم على الاتصال بها والحصول على طلباتهم منها ولم يكونوا يستطيعون التجاوز عن باب المندب الا قليلا ، وهل أدل على تحرج موقف الروم وعجزهم من انهم تو ما سمعوا عن استيلاء الحبشيين على اليمن بعثوا بعيد 531 م بسفارة من قبل الامبراطور (Justinian) الى اكسوم يطلبون من الحبشيين أن يحاولوا شراء الحرير راسا من الهنود وبيعه لهم (الروم) لكي تتوفر الأموال التي كان الروم مضطرين الى دفعها لأعدائهم الفرس، وفعلا حاول الحبشيون العمل بهذا الاقتراح الا انهم لم ينجحوا فى ذلك لما كان يتمتع به الفرس من النفوذ وحسن ادارة الأمور فى أسواق سيلان والهند. ولم يقتصر نفوذ الفرس عند هذا الحد بل تعداه الى انشاء مراكز لهم فى سقوطرة وفى (Adulis) نفسها واخيرا نراهم يطردون الحبشيين من اليمن وينتزعونها لانفسهم حوالي 570 م .

هكذا تمت للفرس السيطرة على جميع المياه الواقعة بين سيلان من جهة وساحل شرق افريقيا من جهة اخرى ، وكان من الطبيعي ان يصبح الخليج الفارسي الطريق الرئيسي لتجارة الهند فى عهدهم ، كما كان البحر الأحمر ابان نبوغ الروم من قبل . ونجد هذه الأحوال منعكسة على الشعر الجاهلي العربي والروايات التي وصلتنا عن ذلك العهد : افهل أدل على الاتصال الوثيق المستمر بين الهند والخليج الفارسي من أن الأبلة كانت تعرف بـ « فرج الهند » (55) كذلك يرجح أن « عدولية » فى قول طرفة :

عدولية او من سفين ابن يامن (56)
يجور بها الملاح طورا ويهتدي

هي السفينة المنسوبة الى (Adulis) مما يدل على الاتصال بينهما وبين الخليج الفارسي .

بقي أن نتساءل : ماذا كان نصيب العرب من الملاحة والتجارة فى هذا العهد ؟ يبدو انه لم يكن لهم صفة مستقلة ، انما كان اهالي عمان وما حواليها

---

53) المهم ان انشقاق سد مأرب كان نتيجة لا سببا لخراب اليمن وتشتت سبأ . انظر Hitti ص 65

54) ظل العالم الغربي يجهل حقبة طويلة ان (Sinae) التي كان الوصول اليها عن طريق البحر و (Seres) التي كان الوصول اليها عن طريق البر انما كانتا تمثلان جزئين لبلد واحد ، كما أن سكانهما كانوا من شعب واحد ، وتمثل كلمة « السرق » بالعربية (* بالانجليزية « Silk ») الحرير الوارد عن طريق البر أي ايران (بالفارسية « سره » والاصل بالمنغولية (sirkek) والصينية « ssi ») انظر (Periplus) ص 266 .

55) تاريخ الطبري (ليدن 12 / 2021 ، انظر ايضا 2023 حيث جاء : « كان فرج الهند اعظم فروج فارس شأنا واشدها شوكة وكان صاحبه يحارب العرب فى البر والهند فى البحر »

56) ورد ذكر ابن يامن فى بيت لامرىء القيس ايضا:

أو المكرعات من نخيل ابن يامن دوين الصفا اللائي يلين المشقرا

المشقر : قصر بالبحرين (البلدان لياقوت) . يرجح الدكتور سليمان الندوي انه كان تاجرا عربيا يهوديا هناك (عربون كي جهاز رائي ص 26) .

57) انظر (Hourani) ص 42 . أما اللغويون فنجد اقوالهم متناقضة مما ينم على نوع من التخبط : عن الأصمعي عدولي قرية بالبحرين ، وقيل موضع يسمى عدولاة ، وعن ابن الكلبي : عدولى ليسو من ربيعة ولا مضر ولا ممن يعرف من اليمن انما هم أمة على حدة (كذا فى اللسان « عدل ») .

قد اختلطوا اختلاطا كبيرا بجيرانهم الفرس ، وكان من الطبيعي ان يشاركوهم اعمالهم مما اكسبهم دراية وخبرة . او لا نرى الى ازد عمان وهم يحتقرون لكونهم « مزونيين » وملاحين كما ان كبراءهم ربما نسبوا في معرض الهجو الى اصل فارسي (58) . اما الصور الرائعة لمناظر البحر واهواله وسير السفن فيه التي يزخر بها ديوان العرب ، فلا يصح ان تتخذ دليلا على مزاولة العرب للملاحة او اهتمامهم بها ولاسيما اذا كان هناك ما يؤكد استهجانهم لها ، انما كانت تلك الصور كليشهات نقلت الى داخل الجزيرة من المناطق الساحلية (59) .

*/

على ضوء ما سردناه آنفا من الاوضاع السائدة في القرن السادس نستطيع ان نفهم جيدا بعض الحوادث التي وقعت في اوائل العهد الاسلامي، فمثلا حملة اهل عمان البحرية على فارس وحتى سواحل السند وكجرات بدون سابق اذن من الخليفة الثاني عمر انما تدل على المعرفة القديمة والتحمس الجديد لاثبات استقلالهم عن الفرس الذين كانوا متفوقين عليهم من قبل ، كذلك نرى كيف ان عمر الذي كان حذرا خائفا من « حمل الدود على العود » اضطر الى السماح بمهاجمة (Adulis) لاشعار الحبشيين بانتهاء سيطرتهم السابقة على المياه المجاورة ثم توسعت الفتوح الاسلامية حتى شملت مصر من جهة والسند من جهة اخرى فكانت النتيجة ان اصبح طريقا الخليج الفارسي والبحر الاحمر تحت سلطة واحدة وتلك غاية طالما تاقت الحكومات المختلفة الى تحقيقها فلم توفق الى ازالة الحدود بين العراق وسوريا كما قد راينا من قبل وتبع هذا التطور الجديد ان ارتفع التنافس والتسابق بين المنطقتين ورجع نشاط كل منهما الى ما كانت تقتضيه طبيعة العمران والاستهلاك المحلي ، وبما ان خط الخليج الفارسي كان اكثر استقامة واقرب مسافة واوثق اتصالا وان التجار لم يلجاوا الى البحر الاحمر الا للضرورة ، لذلك استمر هو الاول الطريق المفضل لتجارة الهند كما كان منذ عهد الساسانيين ومما زاد في نشاط هذه الناحية زيادة ملموسة انتقال عاصمة الخلافة ومركز الحضارة الى بغداد ولعل قول مستشار المنصور الذي يبسط فيه مزايا الموقع الجغرافي لتلك المدينة يقوم اوضح دليل على اهمية العلاقات التجارية التي نحن بصددها، قال دهقان بغداد للمنصور : « ... تحمل اليك طرائف الهند والسند والصين والبصرة وواسط في دجلة ... » (60) .

يصدق هذا القول ما أورده الرحالون والجغرافيون امثال سليمان التاجر (237 هـ) وابن خرداذبه (232 هـ) والمسعودي (332 هـ) والمقدسي (375 هـ) بشأن ازدهار التجارة والعمران في الابلة وسيراف والبصرة ، لقد كانت المراكب تقلع من هذه الموانيء الى مسقط ومن هناك راسا الى كولم ملى (Quilon)
بجنوب الهند حيث كانت تفترق الطرق فاما الى ساحل الدكن (جنوب الهند) الشرقي واما الى سرنديب (جزيرة سيلان) وكله Kedah بملايو) على الطريق الى الصين ، هذا فضلا عن حركة التجارة المتصلة بالموانيء القائمة على الساحل الغربي للهند فوق كولم ومن اشهرها الديبل على مصب نهر السند وكنبايت وبروص (Broach الحالية) بكجرات وتانه وصيمور Chimur) وسوباره
(Churparaka = Sopara)
باقليم بومباي ولنقدر مدى توثق العلاقات بين المصدرين الهنود وزبائنهم بقول سليمان عن ملوك الكمكم (Konkon) انهم « يعمرون ربما ملك احدهم خمسين سنة وتزعم اهل مملكة بلهرا
(Rashtrakutas = « Vallabhrai »)
انما يطول مدة ملكهم واعمارهم في الملك لمحبتهم للعرب وليس في الملوك اشد حبا للعرب منه وكذلك اهل مملكته (61) لم لا والرخاء الاقتصادي في البلاد كان يتوقف على تصريف المنتجات في اسواق العرب ؟

ومما يلاحظ في هذا الصدد ان انتشار الاسلام الى الجانب الشرقي للخليج الفارسي ساعد كثيرا على تكوين شعب واحد من الفرس والعرب سكان السواحل في تلك المنطقة وقد كانوا اختلطوا

58) المهلب بن ابي صفرة مثلا .
59) انظر دائرة المعارف الاسلامية « السفينة » .
60) البلدان لياقوت (ط اوربا) 681/1 .
61) سلسلة التواريخ ص 27 .

وامتزجوا الى حد كبير فى العصر السابق ، ولذلك نراهم فى العصر الاسلامي يشتركون فى أعمال الملاحة والتجارة اشتراكهم فى استعمال اللغة العربية كتابة وخطابة مما يجعل من العسير التمييز بين العنصرين ، الا أن نظرة واحدة على اسماء النواخذة الوارد ذكرهم فى كتاب عجائب الهند لبزرك بن شهريار (62) تكفي للتدليل على وجود العنصر الفارسي بل وعلى غلبته ايضا .

أما مقدار التجارة عن طريق البحر الأحمر فكان ونقا لحاجة مصر لا غير وللسبب نفسه يرجح انه زاد كلما ارتفع شأن مصر على اثر انحلال الدولة العباسية لاشك أن عمر كان قد جدد فتح القناة القديمة بين النيل والقلزم الا انه لم يكن يستهدف من ورائه غير نقل الميرة الى الجار ميناء المدينة .

واخيرا يجب التنبيه على أن ظهور الاسلام وان ادى الى قيام دولة واحدة تشرف على طريقي الخليج الفارسي والبحر الأحمر الا انه فى الوقت نفسه سبب القطيعة بين الدولة الجديدة وبيزنطة ، تلك القطيعة التي استمرت طوال القرون المتعاقبة بحيث لم تكن تسمح لتجار احدى الدولتين بالاطمئنان الى انشاء صلات مستديمة مع الدولة الأخرى فكانت النتيجة ان انحصرت مهمة نقل البضائع بين دار الاسلام وبلاد المسيحية فى ايدي اليهود الذين يتحدث عنهم ابن خرداذبه بقوله :

« يتكلمون بالعربية والفارسية والرومانية والافرنجية والاندلسية والصقلبية وانهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا ، يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ، ويركبون من فرنجة فى البحر الغربي فيخرجون بالفرما (Pelusium) ويحملون تجارتهم على الظهر الى القلزم ... ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم الى الجار وجدة ، ثم يمضون الى السند والهند والصين فيحملون المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا الى القلزم ثم يحملونه الى الفرما ، ثم يركبون فى البحر الغربي فربما عدلوا بتجاراتهم الى القسطنطينية فباعوها من الروم وربما صاروا بها الى ملك فرنجة فيبيعونها هناك ، وان شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة فى البحر الغربي فيخرجون بانطاكية ويسيرون على الأرض ثلث مراحل الى الجابية ثم يركبون فى الفرات الى بغداد ، ثم يركبون فى دجلة الى الابلة ومن الأبلة الى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض (63) .

ثم يحدثنا ابن خرداذبه عن التجار الروس الذين كانوا يقومون بالعمل نفسه :

« هم جنس من الصقالبة فانهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من اقصى صقلية الى البحر الرومي فيعشرهم صاحب الروم وان صاروا فى تنيس نهر الصقالبة مروا بخليج مدينة الخزر فيعشرهم صاحبها ثم يصيرون الى بحر جرجان ... وربما حملوا تجاراتهم من جرجان على الابل الى بغداد ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدعون انهم نصارى فيؤدون الجزية ، فاما مسلكهم فى البر فان الخارج منهم يخرج من الاندلس او من فرنجة فيعبر الى السوس الأقصى فيصير الى طنجة ثم الى افريقية ثم الى مصر ثم الى الرملة ثم الى دمشق ثم الى الكوفة ثم الى بغداد ثم الى البصرة ثم الى الأهواز ثم الى فارس ثم الى كرمان ثم الى السند ثم الى الهند ثم الى الصين (64) .

أما البضائع والمنتجات التي عرفت الهند بها بين العرب فقد أشار اليها بالاجمال أيوب بن القرية (من اصحاب عبد الرحمن بن الأشعث) حينما سأله الحجاج عن الهند فأجاب بقوله : « بحرها در وجبلها ياقوت وشجرها عطر » (65) — وقد عرض لها بالتفصيل أبو زيد السيرافي حيث قال :

« بحر الهند والصين الذي فى بطنه اللؤلؤ والعنبر ، وفى جباله الجوهر ومعادن الذهب ، وفى أفواه دوابه العاج ، وفى منابته الابنوس والبقم والخيزران وشجر العود والكافور والجوزبوا والقرنفل والصندل وسائر الافواه الطيبة الذكية وطيوره الغفاغى (يعني الببغاوات والطواويس) وخرشات

(62) Leide, 1883-86
(63) المسالك والممالك 153 — 154 .
(64) المسالك والممالك 153 — 155 .
(65) الاخبار الطوال للدينوري ص 326 .

ارضه الزباد وظباء المسك وما يحصيه احد لكثرة خيره » (66) .

هذا وقد جمع احد من الشعراء الموالي اسمه ابو الضلع (كذا في معجم المرزباني 513 وفي الفهرست 174 « ابو الصلع ») السندي كل ما امتازت الهند به من وفرة الانتاج واشتهرت به من جودة الصناعات في ابيات رائعة في معرض المدح والافتخار ، قال :

لقد انكر اصحابي ، وما ذلك بالأمثل
اذا ما مدح الهند وسهم الهند في المقتل
لعمري انها ارض اذا القطر بها ينزل
يصير الدر والياقوت والدر لمن يعطل

فمنها المسك والكافور والعنبر والمندل
واصناف من الطيب ليستعمل من يتفل
وانواع الاغاويه وجوز الطيب والسنبل
ومنها العاج والساج ومنها العود والصندل
وان التوتيا فيها كمثل الجبل الاطول
ومنها الببر والنمر ومنها الفيل والدعفل
ومنها الكرك والببغاء والطاووس والجوزل
ومنها شجر الرانج والياسم والفلفل
سيوف ما لها مثل قد استغنت عن الصيقل
ورماح اذا ما هزت اهتز بها الجحفل
فهل ينكر هذا الفضل الا الرجل الأخطل ؟

(الآثار للقزويني ص 85 وانظر الحيوان 50/7) .

الألفاظ الهندية المعرّبة

ان العلاقات التجارية بين الهند والعرب راسخة في القدم تتمثل في الاسماء الهندية المعربة اكثر منها في اشارات او روايات في بطون المجاميع الادبية والتاريخية او المؤلفات الجغرافية ، وقد استحضرت في ذهني عددا من المفردات المتعلقة بالتجارة وما اليها اتوسمها لعلها قد بقي فيها بعد طول اغترابها ما يمكننا من ردها الى اصلها الهندي العتيق ، واقدم فيما يلي بعض النتائج التي وصلت اليها بشأن اصل طائفة من الالفاظ المعربة ، والتي ربما اعتبر بعضها عربيا محضا .

ويهمني ان انوه في هذا المقام بظاهرة ربما يكفل ابرازها القضاء سلفا على اي استغراب يلحق القاريء فيما بعد ، وهي ان العرب الاول الذين نراهم عبر التاريخ يغامرون بحياتهم في لجج البحر الهندي انما دابوا على ذلك ليجلبوا من الهند وما وراء الهند لا البضائع فحسب بل اسماءها المحلية ايضا كما سمعوها من افواه الذين اختلطوا بهم وعاملوهم ، وسيبدو ذلك طبيعيا اذا نحن قدرنا ان معظم تلك البضائع هي التي لم يعرفها العرب في اوطانهم وغير اوطانهم من قبل ، بل انما عرفوها لاول مرة في الهند ثم عرفها العالم الغربي عن طريق العرب فيما بعد . وعلى هذا فالتأكد من كون الهند الموطن الاول لبضاعة من البضائع اذا اقترن بثبوت استيراد العرب لتلك البضاعة منها (الهند) ينهض دليلا قويا ، بل قاطعا ، في كثير من الاحوال ، على ان الاسم هندي الاصل كالبضاعة ذاتها . فمن الامثلة المتفق عليها من هذا القبيل الموز والكافور والقرنفل والصندل والساج والمسك والليمون والنارجيل واسماء عدد من العقاقير كالاطريفل وجميع اصناف التوابل تقريبا كالفلفل ، وسنرى اننا لو سرنا على هذه القاعدة لكان في وسعنا ان نلقي بعض الضوء على اصول عدد من الكلمات التي لا يزال يكتنفها شيء من الغموض .

ولا يخفى ان لبحثنا هذا جانبا آخر على درجة كبيرة من الاهمية وهو ان معظم تلك الكلمات التي يقال عنها انها عربية دخيلة في اللغات الأوربية ، ولاسيما الاسبانية والفرنسية والانجليزية ، هي في الاصل معربة عن الهندية واللغات المحلية لمناطق اخرى شرقي الهند ، وذلك لان تلك الكلمات انما شقت طريقها الى اوربا عن طريق التجارة على ايدي العرب ، ولكن العرب لم يكونوا منتجين في اي من حقلي الزراعة والصناعة لا لشيء الا لان الطبيعة حرمتهم من الثروة النباتية والمعدنية . اذن فكأن

66) سلسلة التواريخ 137 — 138 .